خـــــاطرة

حيـــن تضيـــــع ملامـــــح القضيـــــة

تسكنهم الهواجس والتساؤلات والمخاوف من الغد. ترهق أجسادهم الفتية وعقولهم التواقة للانفتاح على العالم والمستقبل، أسئلة من قبيل : هل سيكون غدهم أفضل من يومهم؟ وهل سيجدون لهم مكانا في زحمة الباحثين عن عمل؟ أم أنهم سوف يقفون بدورهم في طوابير العاطلين؟ هل سيعيشون عهدا تنمو فيه بلدهم بالفعل؟ أم أن الطريق لازال طويلا أمام الجميع، وقد لا يعيش حتى أحفادهم هذا الحلم؟

أسئلة كثيرة تلك التي تطرح نفسها عليهم باستمرار، ويبحثون لها عن إجابات توقا لبوصلة تمكنهم من معرفة الهدف الذي من أجله يعيشون ومن أجله عليهم أن يناضلوا.

لم يكن من الممكن لتحولاتهم الجسدية أن تمر دون أن تحدث فيهم ثورات فكرية، وتفجر شلالات من أسئلة لا تنتهي ولحظات ترقب طويلة.

خلال مساهمتي في إعداد شريط حول المراهقات والمراهقين في العالم العربي، استوقفتني الكثير من التساؤلات والآراء التي عبر عنها مراهقو ومراهقات المغرب، كان فيهم الذي يتابع دراسته والذي قهره واقعه منذ البدء وأخرجه لسوق العمل، واستوقفتني أكثر، قدرتهم على فهم واقعهم والتجاوب معه ومحاولة فهمه بشكل يمكنهم من تلمس ملامح طريقهم نحو المستقبل.

أحلامهم تعانق السماء، وأسئلتهم تحفر الأرض، وتأبى أن تتوارى بحثا عن جواب شاف، عن أمل، ولو عن بصيص ضوء.

يعيشون مع الانترنيت ومختلف الثورات التكنولوجية وكأنها عالم كان قائم الذات منذ عقود، استوعب الكثير منهم التعامل معه، ويشعر الآخرون بأن ما ينقصهم كبير، وعليهم أن يبادروا إلى أقرب محل للإنترنت لاكتشاف هذا العالم.

غيـــر أن هـــذا الاكتشاف، بقـــدر ما يمنحهم من حلم، بقدر ما يوسع حجم الخيبـــة في ذواتهم، وبقدر ما يفتـح من أبواب، يشعرهم بحجم الأبـــواب الموصدة أمامهم، ويشعرهم بأن الهجرة ربما هي الحل.

الكثير من أطفال مغرب اليوم، ومراهقيه وشبابه، يرون في الهجرة الحل. هل هي هجرة مؤقتة أو غير مؤقتة؟ شرعية أو سرية لا يهم، لكل ظروفه ولكل تصوراته لمستقبل علاقته مع ذويه وبلده، لكن الاتفاق على أن الهجرة قد تكون أحد الحلول الأساسية، يبقى لازمة تتكرر على لسان الكثير منهم، وتجعل من الشمس التي تحدث عنها "علي زاوا" في فيلم نبيل عيوش، شمس الكثير منهم، ونقطة الضوء التي يرونها، ولو من بعيد.

لا تستغرب إن سألت أحدهم عن الشخصية المثالية بالنسبة إليه، فقال لك : أسامة بن لادن، فكثير منهم يرون فيه اليوم شخصيتهم المثالية. ومنهم من يعتبره "الوحيد الذي يستطيع اليوم قول لا"!

الكثير منهم يتوق لقول لا، ولسماعها من "الكبار" فيقولها بعضهم بطريقته الخاصة. منهم من استقطبته أياد جماعات تعلمت اللعب بالعقول، وحولت أجسامهم الفتية إلى قنابل بشرية انفجرت في الـ 16من مايو المنصرم وفجرت معها أبرياء آخرين، ومنهم من اختار الهجرة عبر قوارب الموت حتى لو استقر، في النهاية، في بطون الحيتان، ومنهم من أدمن الانترنيت، فيتحايل على كل أفراد أسرته لجمع الدريهمات التي تفتح أمامه أبواب فضاءات الانترنيت وأبواب الحلم، ومنهم من يكتفي بما تقدمه له إمكانيات أسرته المحدودة.

وبموازاة كل أولئك الذين ساعدتهم ظروفهم على التعلم، حمل آخرون المعول والفأس وانطلقوا يعملون في الحقول أو في المعامل، تصارع أصابعهم الفتية أدوات العمل، ولا يجدون حرجا في إخبارك أن ظروف أسرتهم المعيشية أجبرتهم على ترك المدرسة والبحث عن شغل، أي شغل حتى لو كان مقابله الشهري لا يكفي لقمة بسيطة لأسبوع واحد.

لم أنس ما قالته لي الدكتورة شهيدة الباز، في أحد الأيام، ونحن على مائدة الفطور، من كونها تشفق على شباب اليوم، قائلة "في شبابنا، كنا نملك قضية، ندافع عنها، ونحلم بمستقبل أفضل" ونحن، أقول لك، دكتورة، بالفعل عشنا في فترات بدأت ملامح القضية تتلاشى - تتوزع، وتفقد وضوحها. ومع الجيل الحالي، أصبحت القضية قضايا ولم يعد من السهل عليهم الإمساك بأحد أذرعها.